الافكار الانقسامية وتحدياتها

د/ جاسم سلطان

التحدي والاستجابة:

لا توجد أمة على وجه الارض إلا وتشهد تحديات عبر اطوار نشوئها ونموها ، والامة العربية ليس استثناء، ومشكلة الافكار الانقسامية والتي يمكن تعريفها بانها منظومة الافكار التي تهدد الامن القومي إما كتهديد وجود بمعنى انها مطالب تقود لتجزئة الوطن وانقسامه او تهديد استقرار بديمومة الاحتقانات والانفجارات الاجتماعية مما يقود حتما لمشاكل في التنمية وعائد الرفاهية على المجتمع ككل. ورغم ان هذه المشاكل تواجه معظم المجتمعات ولكن بعضها امتلك القدرة على مواجهة هذه الافكار الانقسامية في حين ان البعض الآخر عاجز عن مواجهتها.

الطبيعي والمصطنع:

والافكار الانقسامية باستمرار لها خطوطها الطبيعية مثل الانقسامات العرقية والجغرافية والدينية بكل اشكالها المذهبية والطائفية ، ولها تطوراتها وتحولاتها من ظاهرة طبيعية لظاهرة سياسية عبر السياسات التي تتبعها الدول في الاقتصاد والاجتماع وتوزيع الثروة والقوة وحينا هو تتولد دوائر المظلومية وتتصل حلقة الواقع المصطنع بفعل السياسات الخاطئة مع الواقع الطبيعي في شكل مطالب وفعل سياسي يهز كل اركان الاستقرار الاجتماعي والامن القومي.

المسار والمآل:

والافكار الانقسامية في باستمرار تأخذ مسارا واحدا فهي تبدا من شعور بالاختلاف تبنى عليه سياسات تمييز ضد فئات اجتماعية معينة وبالتالي يصبح هناك مفهوم الاقوى والاضعف او الفاعل والمفعول به أو العلوية والدونية وهي البذور الاولى للفعل الانقسامي ثم مع الاحتكاك تتولد لغة ومفردات إقصائية يحتقر بها كل من الطرفين الآخر ويستعدي عليه وحين تتصاعد الامور لدرجة واضحة ينشأ الصراع المفتوح وتستخدم فيه القوة الصلبة مما يولد روحا عدائية اكبر ويفتح المجال لظاهرة الاستقواء بالخارج والتدخلات الاجنبية .

تجليات الافكار الانقسامية :

في الوطن العربي حزمة كبيرة من الافكار الانقسامي، فهناك السنة والشيعة والملف مفتوح على آخرين ، وهناك الكرد والعرب، وهناك الامازيغ والعرب ، وهناك الزنج والعرب ، وهناك المسلمون والاقباط في مصر، وكل هذه القضايا ينطبق عليها ما قلناه في موضوع الافكار الانقسامية ومآلاتها ما لم يتم التنبه لهذه المشكلة وان لا تختزل المعالجات على التسويات السياسية دون الغوص العميق في جذورها المنتجة لها وبالتالي ايجا حلول للمشكل الثقافي الذي يختفي تحتها والذي يعيد تغذية المشهد بذات البذور التي تشتعل مع اول منعطف تمر به المجتمعات.

المثال السني الشيعي :

في السنوات الاخيرة وبعد الثورة الايرانية إنفجر الملف الشيعي محملا بتوترات ١٤٠٠ سنة ليشكل واحدا من اكبر التحديات التي تواجهها المنطقة بحيث ولد إصطفافات حادة وهي تأخذ ذات المسار الذي تأخذه الافكار الانقسامية في تطورها ففي ايران الثورة وفي بعض مناطق الوطن العربي يوجد إنقسام طبيعي وهو وجود معتقدات دينية مختلفة كليا او جزئيا أو حتى وجود إختلافات وهو ما يمكن ان يشكل مصدر إثراء في اي مجتمع وحين تعمل السياسات الخاطئة لتحويله لمسار تمييزي ومواطنة ذات مستويين اوثلاثة ومع سياسات الاقصاء والتهميش تتولد ردود الافعال الطبيعية وينتقل شيئا فشيئا إلى حالة توتر تستدعى معها الذاكرة التاريخية وتكسبه لغة وتتم الاصطفافات بين المواطنين على قاعدة هذا الاختلاف ثم ينفجر في صراع عنيف وعندها تتدخل القوى الخارجية بكل اجنداتها في المشهد الداخلي..وبرغم إختلاف المشهد واختلاف النسب بين اقلية او اكثرية واختلاف القاعدة التاسيسية بين عرقية او مذهبية او طائفية ولكن مسار الحدث ياخذ ذات المسار.

الهروب التاريخي:

والملف الشيعي اليوم هو اكثر هذه الملفات سخونة في المشهد بل ومن أخطرها على مستوى المنطقة واستقرارها، فإيران الدولة حولت الوجود الشيعي في كل مناطق الوطن العربي من مصدر إثراء للعلاقات العربية الايرانية لعنصر توتر وقلق وتهديد يمس مستويات الوجود والاستقرا والتنمية . وصانع القرار في إيران الشيعية او صاحب القرار في المحيط السني في إستخدم باستمرار المسكنات المتمثلة في قوة الدولة القمعية او الترضيات السطحية للتعاطي مع هذا الملف ولم ينجح اي من هذين الحلين لوقف الانزلاقات الخطيرة التي تحدث في يومنا هذا لتجنب الاسوء. ..وحان الاوان لمقاربة جديدة وقابلة للتطبيق.

تركيز العدسة :

المكون العربي والفارسي واشتباكهما:

لننظر بشئ من التدقيق للملف الشيعي السني اليوم ، فهناك على ضفاف الخليج الشرقية توجد دولة ممتدة تسمى إيران وهي وجود جغرافي وتاريخي كبير وتفاعلاته مع محيطه العربي الممتد من العراق حتى نهايات الخليج الفاصل هي بنت هذا التجاور والعلاقة بين الفرس كعرق والعرب كعرق آخر ممتدة عبر التاريخ ولكن الجزيرة العربية بصحرائها وكثافتها السكانية الصغيرة نسبيا لم تكن مغرية لتدخل الجار الأكبر في حياتها إلا عبر التحكم من الاطراف فلم يكن هناك ما يغري بالاستيلاء على هذا الجزء القريب والمحاذي للكيان الفارسي.أما مناطق الارتطام فكانت تتم في العراق فالموجات الاولى المهاجرة من الجزيرة كالكلدانين وغيرهم استطاعت ان تسيطر على بلاد ما بين النهرين على حساب القوى الفارسية الهابطة من جبال ايران وحين تضعف كانت ايران تبسط نفوذ امبراطوريتها على هذه المناطق وعند ظهور الاسلام كانت دولة المناذرة العربية تشكل حاجزا بين العرب والفرس وتعمل كوسيط بين قوى البادية وقوى الامبراطورية الفارسية.

المكون الاسلامي ودورة التسنن والتشيع:

ومع النهوض الاسلامي الذي شكلت الطليعة العربية قلبه ، امتد النفوذ العربي المسلم ليسيطر على بلاد فارس وما ورائها حتى حدود الصين وأصبحت هذه المساحة الحضارية الضخمة رافدا ضخما للحضارة الاسلامية يمده بالغذاء الفكري والعلمي لقرون طويلة ومع تقلبات الاحوال السياسية وتنوع الدول التي نشأت في ظل الخلافة العباسية المتآكلة بقيت اللحمة في حدودها المعقولة رغم الشرخ الذي حدث في العصر الاموي ونشوء الظاهرة الشعوبية في تلك المرحلة. ورغم ظهور التشيع مبكرا في الفضاء الاسلامي ولكن ظلت روافده الكبرى عربية وانتشاره عربي فمن اقصى المغرب العربي غلى مصر غلى بلاد الشام امتدت الدولة الفاطمية والتي كانت تمثل الاتجاه الاسماعيلي الباطني في التيار الشيعي وهي على طرف النقيض معتقدا من المذهب الامامي والذي قاتل مع صلاح الدين ضد الدولة الفاطمية في ذلك العصر. ومع القرن السادس عشر الميلادي تولى الصفويون الاتراك مقاليد الحكم في ايران واختاروا تشييع ايران لمنع النفوذ التركي الذي تمثله السلطنة العثمانية عن دخول ايران وبالتالي استفادوا من شيعة جبل عامل في لبنان في القيام بهذه المهمة وقد تم لهم ذلك .

ايران الشاه:

لقد تركز الفعل الامبراطوري الشاهنشاهي الذي اطاحت به الثورة الخمينية على الفكرة القومية الايرانية وبالتالي قام ببناء قوة عسكرية متحالفة مع الغرب اهلته ليصبح شرطي المنطقة وأحد مفردات سياسة الاحتواء التي كانت تمارس ضد العراق

واحتمالية قيامه كقوة اقليمية بالسيطرة على منابع النفط في الجوار..كما انه كان يشكل قوة تدخل في حالة الحاجة له لعون القوى الغربية في المنطقة كقاعدة ارتكاز.

ايران الدولة وإيران المذهب :

ومع مجئ النظام الذي نشا بعد الثورة ، وميلاد فكرة الاعداد لعودة المهدي ، تم التحول بالتشيع من عقيدة سكونية تنتظر عودة المهدي دون اي فعل مباشر لعقيدة تتحرك لإنشاء الفضاء الذي سيتحرك فيه المهدي بحسب المنظور الشيعي ، وهذا احدث نقلة كبرى حيث تحول التشيع من تدين مجردة لأيديولوجيا تسير الواقع وتحكم مفرداته..ومن هنا نشأت افكار عابرة للحدود الايرانية فالمهدي المنتظر مكان خروجه ومسرح فعله ممتد خارج الحدود الايرانية وبالتالي لابد ان تتحرك ايران خارج حدودها وان تستفيد من ابناء الطائفة الشيعية وكل من يمكن ان تكون له رؤيا قريبة من اهل البيت ولا يهم عندها ان يكون مفارقا لهم في كثير او قليل فالإسماعيلية سيصبحون اداة والحوثيون سيصبحون اداة والإخباريون سيصبحون أداة...فتحركت الآلة المذهبية مع ممكنات الدولة الايرانية لتخليق وقائع خارج الارض الايرانية امتدت آثارها لكل مكان في العالم مستفيدة من اي قوى قابلة للتفاعل مع المشروع الايديولوجي والذي يستفيد من قصور معالجة هذا الملف في ذات الاوطان المستهدفة وبالتالي تولدت حالة خطيرة من التوتر لها ما بعدها.

هذا لاندماج بين فكرة الدولة والمذهب، والانطلاق في الحراك السياسي من فكرة المهدوية الدينية لتحويلها لنظام حركة واستعداد يدخل ايران في خانة النظم الشمولية ذات الايدولوجيا العابرة للحدود والأطماع المتعلقة بحلم ديني وبالتالي يحولها لتهديد مباشر لذاتها ولمحيطها ..وللنظر لذات الايديولوجيات الوثوقية عبر التاريخ ابتداء من هتلر وموسوليني ولينين والمشروع الصهيوني وكلها دمجت الدولة بالفكرة مع شكل من الطوباوية التي ترى العالم من خلال الايدولوجيا الكونية وانتهاء بالحركات الوثوقية الجهادية الاسلامية المعاصرة وما آلت إليه سنرى مشهد المشروع الايراني الحالي في مآلاته الاخيرة وقد سبب فاجعة للمنطقة ولنفسه لا محالة ما لم يتم تدارك الوضع وتعديله .

الفصل في الملفات:

حين ننظر للملفات في ضوء حالة الخوف والقلق والتوتر يصعب علينا إيجاد علاجات ذات معنى لهذه التحديات التي تحيط بالوطن العربي وفي ضوء حركة ردود الافعال المتبادلة سنخسر الكثير ...مال نسارع لتحديد الملفات المختلفة المتعلقة بهذه الظاهرة المشتبكة في فضائنا العربي وللتبسيط سأقربها لثلاثة ملفات مهمة :

- ملف الفكر الشيعي والسني
- ملف الانسان الشيعي والسني

- ملف الحركة المهدوية الايرانية واحلامها

الفكر الشيعي(حوار الفكر بالفكر):

ملف التشيع ليس من الملفات الحديثة في المنطقة فعمره من عمر الظاهرة العربية الاسلامية في اول منعطف من منعطفات تكون المشروع الاسلامي بنخبته القرشية وبروز فكرة آل البيت وصراعهم مع النخبة القرشية الاموية ثم العباسية حول قيادة المشروع العربي الاسلامي ثم تطور مشروع آل البيت في تشكيلات اعتقادية وتشكيلات فقهية ثم طقوس ومراسم وذاكرة منفصلة عن الخط العام لجموع المسلمين ثم تفرعها في ذاتها لخطوط متباينة عبر صيرورتها الزمنية كل ذلك ليس بجديد.

وعبر التاريخ أخذت ظاهرة الحوارات والمجادلات والحجاج مداها بين الاكثرية من اهل الاسلام وبين الفرق الشيعية وأكبرها الفرقة الامامية الجعفرية وبين المد والجزر بقيت الفكرة وبقي اصحابها داخل مجتمعاتهم الام حتى يومنا هذا لم يصطدموا بمحيطهم الاكبر ولم يذوبوا فيه.

ومن هذه الزاوية يمكن النظر لظاهرة الكتاب المنافح عن فكرة التشيع ودعوته باعتباره خطا فكريا يتم الرد عليه ومحاورته دون خوف او تخويف..وكل ما تحتاجه الاطراف ان تتجنب منغصات الحوار وأدوات حرفه عن الحجاج العاقل لظواهر التكفير واللعن والسباب لان تلك هي مقدمات الاقتتال.

هذا العصر هو عصر الحوارات المفتوحة وهو في نفس الوقت عصر العقول المفتوحة وهو عصر حرية الاختيار وبالتالي نحتاج لأدوات نشر آداب الحوار فهي صمام الأمان لمنزلق تحويل نعمة الحوار لوباء الافتراق والصراع.

ملف الانسان الشيعي والسني :

ها هنا تكمن مشكلة كبيرة في بنية العقل المسلم السني والشيعي على قدم سواء، فالخلافات الفكرية شئ وحقوق المواطنة الكاملة شئ آخر وحين ننظر لظلال الانقسام الفكري على خطوطه الاعتقادية والفكرية وتصوراته لفضاء التاريخ سنجد أنها انعكست في مخاوف كبيرة حرمة الانسان السني في ايران من المواطنة المتساوية عبر القانون والدستور الايراني (الاسلامي) وهو ما لم يحدث في الفضاء السني ولكن عبر الممارسة والتمييز الوظيفي والثقافي تولدت نفس مشاعر الاضطهاد وكلها مقدمات لازمة سواء وجدت ايران لتحريض الشيعة ام لم توجد او جد السنة لدعم العرب والبلوش وغيرهم من السنة في ايران ام لم يوجدوا فرد الفعل للظلم الواقع على الانسان طبيعي وبالتالي لا بد من مراجعة السياسات التمييزية باسرع وقت ممكن وايجاد تعاقد وطني صحيح مبني على فكرة المواطنة المتساوية لا فكرة المساكنة والمنة .

ملف الحركة المهدوية الايرانية وأحلامها:

وهو ملف يحتاج لمستويات متعددة من المعالجات العربية :

مستوى القوة الذاتية :

فالمنطقة العربية فيها ٢٢ دولة وفيها ٤٠٠ مليون من السكان وفيها المقدرات النفطية الهائلة وفيها البنية التعليمية الملائمة لإنشاء قوة عربية هائلة ودول الخليج في لحظتها التاريخية تملك مسئولية كبرى في تحفيز العمق العربي اليمني والمصري والشمال افريقي لإنشاء مشروع استراتيجي كبير يملأ فراغ القوة ويسد الشعور بالعجز امام اقوة الايرانية الصاعدة..فلا يمكن إجراء حوار ذو معنى بدون وجود طرف عربي قوي على طاولة التفاوض الاقليمي .

مستوى الحوار العربي الايراني الصريح :

لا تحتاج المنطقة بقواها الاقليمية لمزيد من الحروب ومصلحة ايران والمحيط العربي تكمن في السلام والتكامل والتنمية لا في دق طبول الحرب وبالتالي تنمية القوة الحوارية المستندة لقوة مادية اساس كبير في الحوار.

المستوى الداخلي في الاوطان:

كل المؤشرات تدق نااقوس الخطر وصوت الفتنة يعلو باستمرار وما لم يتم تدارك الموضوع على مسارين هامين سيصعب في مراحل لاحقة التحكم بمخرجات الاحداث :

الخطوات قصيرة المدى وتشمل :

المقاربة الحقوقية : حيث يلزم إزالة اية مظالم متعلقة بانتقاص حقوق المواطنة.

المقاربة الاقتصادية : حيث يلزم إزالة اي تميز واقع على أي طرف نتيجة معتقداته.

أما المدى المتوسط :

فيلزم تشكيل لجان علمية تقوم بتطوير مناهج التربية والتعليم والإعلام بحيث تساهم في خلق الهوية المشتركة للأجيال والمتمركزة حول الوطن الجامع .

والنظر لمنابر الخطاب الديني ومناطق الاحتكاك في فضاء الشبكة العنكبوتية والتي تغذي الذاكرة المحتقنة بصراعات ١٤٠٠ سنة لتعيد إنتاجها في مواجهات كلامية ساخنة وهي بعينها تصبح وقود تفتيت الاوطان.

الخاتمة:

إن مثلث الحل الاستراتيجي للتحدي الذي تواجهه الدول العربية من جراء تضافر ظاهرة المشروع المهدوي مع المظلوميات الداخلية يكمن في معالجات ثلاث أولها تحصين العمق العربي استراتيجيا لإيجاد نقطة توازن مع الاحلام الايرانية المتصاعدة وثانيها في البدء بعلاج الملفات التي توجد الارضية للتدخل الايراني الذي يستثمر الفراغات التي تتركها السياسات الداخلية الخاطئة في موضوع المواطنة الكاملة وثالثها بإيجاد التغير الثقافي في الاجيال الشابة للوعي بمخاطر الانقسامات الدينية والمذهبية وخطرها على الاوطان ومن ذلك مكافحة كل اشكال الخطاب الديني المفخخ من جميع الاطراف والذي ينشئ الفتنة ثم يتغذى منها. وكل ذلك يحتاج لجهز كامل للتعاطي الموضوعي مكون من رجال فكر وعلم مع رجال دولة وتنفيذ لانتاج حل يقوم على العدل والحرية والكرامة الانسانية ويحفظ الامن الوطني والقومي لسفينة المجتمعات العربية.